حلم امرأة

محمد عبد الله عيسى

الغلاف الخارجي:

الأستاذ الفنان / عبد الرحمن نور الدين

اهداء

إلي عائلتي الصغيرة ...
إلي صديقي المسافر أبدا ..
حتى نلتقى ..

محمد عبد الله عيسى

اللوحات الداخلية:

الأستاذ الفنان / عوض الخولي

الفهرست

إهداء خاص :

إلى أصدقائى بمركز التأهيل الشامل بالإسماعيلية ...



حلم امرأة

مازلت أسبح فى صبرى منذ تاهت خطاك فى الزمن المافون •• اثقب أسفار الدنيا •• أشطر الأيام بحثا عنك •• حتى إذا هدنى اليأس ركنت إلى (الجميزة) العجوز عند مدخل القرية •• أحسب لعودتك •• أنتظر ••

- أرض الله واسعة •• يا (ناعسة) ••
- أخاف .... يا (أيوب) ••

يروجون أنك خرجت فى أثرهم •• تستثمر الفتات والقحط •• ترمح فى أيامهم المفتوحة •• تبرؤك من السقم الأبدى الكامن فيك ••• وأنا فى محرابى ، أطرز النبؤة بالأمل •• أحسب لرائحة النباح فى أنيابهم الجائعة ، تنهش الأرض حولى •• تجرفها •• تتوثب للهجوم علىّ ، ورفيقات دربى الصغير يفرشن كيدهن •• يمضغن الابتسامة على مضض ••

- نسوة المدينة •• يطلبن جدائلك ••
- معذرة يا سادة •• مازلت أضفر أحلامى ••

. . . .

. . . .

وعدنى أن يعود •• سوف تخذلكم نبوءتكم •• فالقافلة هناك ، تدق معاول الخروج •• وفارسى فى تأشيرة المجهول ، يغوص فى الأعاصير الجامحة ••

يرفع الأنقاض •• يلملم الصرخات تحت زمن السقوط الواسع •• يخلع نعليه فى قداسة الترحال بحثا عن بعض الخبز ومحلول الجفاف ••

- خذلك فارسك يا امرأة ••
- لا تعرفون أيوب ••
- ••• باعك وباعنا تحت سفح الهرم ••
- •• كان أيــــوب طيبـــاً صالحـــاً •• لم تعيروه اهتماماً بينـــكم •• فانطلق ••

- أكل التفاح هناك .. حذروه كثيراً .. لم يذعن لهم .. فطردوه إلى أرضنا من جديد ..
- أيوب هناك .. ينام فى صدر الفقراء .. يلقمهم الصبر ..
- .. بل يسرقهم .. يغتـــالهم .. يرتشف تعاستهم ..
- الحقد يملاكم ..
- .. أنصتى يا امـــــرأة .. لقد برأ رجلك من الديدان التى كانت تنخر جدرانه .. اغتسل من سقمه القديم وعاد يتدثر بعبـــاءة البركة الكبرى .. يطلق تعاويذه .. يفتح صدره .. يبلع كل الأحلام الصغيرة والكبيرة ، والأقزام حوله يتمسحون عند أعتابه .. يقيمون حلقات الذكر .. يرددون أهازيـــــج (مسيلمة) .. يهللون .. يزغردون ..
- تكذبون دائما ..
- هى الحقيقة بلا زيادة ..
- .. خذونى إليه إن كنتم صادقين ..
- .. لن يعرفك ..
- سوف أذكره باحلامنا التى فى عنقه ..
- .. هرسها جميعا تحت حذائه الوثير .. وأنت فى صبرك القديم تنتظرين الدواء فى عودته .. يرفع الصديد ويطهر الجرح ..
- خذونى إليه .. أصرخ فى وجهه .. أزلزله .. أبرؤه من سقمه الـــوافد .. كما ساعدته من قبل ..
- لن يجدى صراخك تلك المرة .. فقد سبق السيف العزل ..
- لماذا جئتم إذن .. ؟
- نريدكم بيننا .. قطعة غالية من اللحم والدم ..
- تريدون نهش ما بقى منى ..

- معاذ الله .. نحن نخاف الفتنة
- ... وأنا أخاف عيون الجوعى ..

. . . .

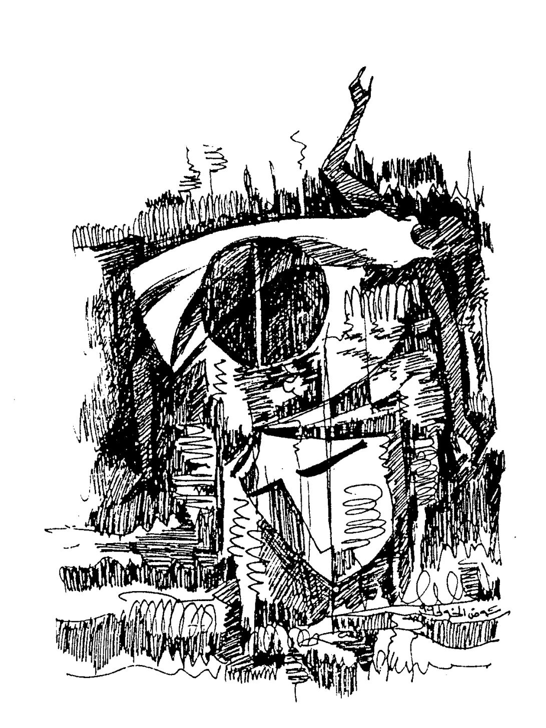
. . . .

طالما طاف الرجال حولها .. يقدمون فروض الولاء والطاعة يريدون ودها .. ترفضهم جميعا ..

تجلس إلى نول الصبر الكبير .. ترتق أحلامها المهترئة ، حتى إذا حل المساء .. عادت تفتق ما تم .. وتخرج إليهم فى الصباح الجديد ..

- رفقا بنا يا امرأة .. هدنا الصبر .. انتظرناك كثيرا ..
- معذرة يا سادة .. ما زلت أغزل أحلامى ..

• نشرت بمجلة الثقافة العدد (١) عام ١٩٨٩



القمر
أسيرا

عندما خرج الموكب الكبير لاستطلاع هلال الشهر الكريم كالعادة فوق أعلى ربوة فى البلاد حيث يقبع المرصد القديم ، وبينما كان قاضى القضاة يوزع علمائه فى الاتجاهات المختلفة لرصد الزوايا البعيدة للمجرات السماوية وحركة النجوم ، انشقت الأرض عن رجل يحمل رسالة للقاضى ، ما إن اطلع عليها حتى سقط من فوره ، فأسرع جمع من الرجال يتلقفونه ، يفسحون المكان حوله حتى تصله نسمات الهواء الباردة ، ترد أنفاسه إليه .

والتف جمع آخر من رجال الموكب حول الرجل ، يستطلعون أمر الرسالة فى يده .

- جئت أحمل إليه إشارة تليفونية ، تلقيتها من إحدى المنظمات ، تعلن مسئوليتها الكاملة عن خطف القمر من أيامنا .

. . . .

" سيدى القاضى ..

لن تثبت رؤياكم ،

أخرجونا إليكم ،

فالقمر أسيرنا .. "

ركلتنا أيامكم إلى غيابات النسيان ، تتلقفنا زوايا التاريخ المظلمة ، تبيع الزيتون والفتوحات ، تسحبنا إلى حلبة الثيران الواسعة ، تصارعنا ، تنحر أعيادنا ، وتنحرنا ، وأنتم خارج الحلبة (تضحكون ولا تبكون) . ترتلون (وفديناه بذبح عظيم .....) ...

ثم تخرجون فى الموكب الكبير بحثا عن أيامكم ، ونحن فى حنايا الظلمات ننتظر .

" سيدى القاضى ..
أعيدوا لنا البسمة
أعيدوا لنا العيد
فالقمر أسيرنا .. "

. . . .
. . . .

وعندما التقط قاضى القضاة أنفاسه صرخ فى رجـال الموكب الكبير :

- يا أيها الملأ .. اضربوا فى كل اتجاه ، ابحثوا عنهم ، ابحثوا عن قمركم ، فأيامنا ، طقوسنا ، أعيادنا ، أمانة فى أعناقكم ، فمن شهد منكم القمر فليرحمنا .

. . . .
. . . .

وخرج رجال من المدينة يبحثون عن القمر فى صرخات الانتحار المجنونة ، بين مقامرى الموت ، تحت أشجار الأرز .

" نحنا والقمر جيران
لما طل وزارنا
على قناطر دارنا
رشرش المرجان "

- يا جارة الوادى هل عاد القمر ؟
- لا أثر له ، منذ صلبوا أغانينا فوق الناى .

" سيدى القاضى ..
سنغتسل بمياه قدسية
وسنمحو القدم الهمجية
الأرض لنا .. والقمر لنا "

وخرج رجال من المدينة يبحثون عن القمر فى أيامهم عبر رحلة الشتاء والصيف ، أضلهم (السامرى) ، فجلسوا إلى الشط ، يشعلون النيران ، تدفن (كسرى) فى زمن الأبرياء الموؤد ٠

- يا أبا العشق ٠٠ هل طلع القمر ؟
- يقولون ٠٠ انتحر !!
- لكنى ٠٠ أراكم ترتلون الشعر ٠٠ وتشربون الدم ٠
- لا عليك ٠٠ اليوم خمر ٠٠ وغدا أمر ٠

" سيدى القاضى ٠٠
جاوز الظالمون المدى
أنتركهم ٠٠ يقتلون القمر ؟ "

٠ ٠ ٠ ٠
٠ ٠ ٠ ٠

وخرج رجال من المدينة يبحثون عن القمر خلف كل الناس ، يرقصون بينهم فى طبول الجفاف ، ينقبون الأرض بحثاً عن كل شئ حى ، ويرتشفون خيوط الاستواء ٠٠

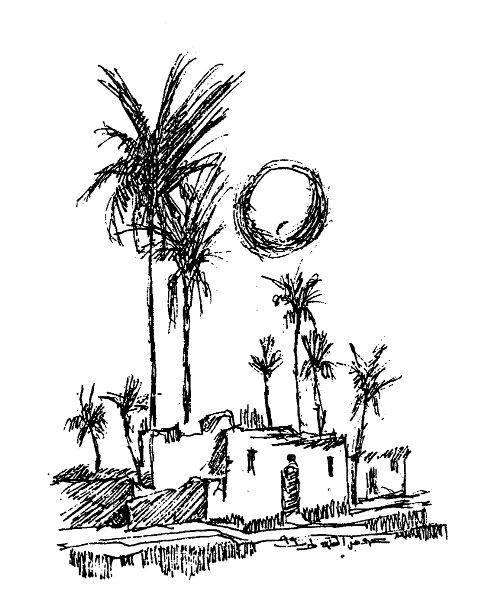
- هل أتاكم حديث القمر ؟
- كان ظمآنا ٠٠ حاول الفرنجة أسره ٠٠ لكنه هرب ٠
- ٠٠٠ أين المفر ؟
- ذهب ينام فى أحلام العبيد ٠

" سيدى القاضى ٠٠
هل عاودتك أشواق الغناء
والروابى الخضر تشدو

والسما حلو الرواء
...... والقمر بيننا "

ويصرخ القاضى فى الجمع الكبير ، أفسحوا الطريق يا سادة فشاهد الرؤية ضيف كريم بيننا ، يقطن الجهات الأربع ، ويفرش كل الزمن ..
- أفتنا أيها الصديق .. هل رأيت القمر ؟
- إنه هناك حيث البعيد .. البعيد .. قابـــع خلف
الما لا نهاية .. يضمد جراحه بين النجوم .. يبكى ..

• نشرت بمجلة الثقافة الجديدة / العدد العاشر / أبريل ١٩٨٦



من
خبر
القرية

قالـــت : يا ولدى لا تحزن ..

قال شـيخ : انتبهى يا امرأة .. هو العمدة ..

قالـــت : معذرة .. حسبته فتى الأيام الحالمة ..

قال العمدة : لا عليك .. ما تأويلك فى رؤياى ؟

قالـــت : أصحب فتيانك إلى مدخل الجب .. أخرج معهم .. وأنتظرهم ..

قال العمدة : من أين لك هذا ؟

قالـــت : أقرأ المسطور فى رأسك .

قـــال : تعنين ؟

قالـــت : أخرج معهم يا عمدة .. وأنتظر الخيط الأبيض ..

. . . .

. . . .

ووجدتنى أسبح فى ظلمات بعيدة .. أصارع الخـــواء .. أتسلق الصخور حتى أصل إلى القمة الوعرة .. يتملكنى حماس جنونى أصرخ .. وسط هالات من رءوسهم الذهبية المفعمة بنقوش الرخاء ..

- أجدادنا .. النجدة ..
- ماذا تريد يا ابن الأيام الرخوة ؟
- .. لقد استخلصتم المعادن .. اهتديتم إلى الصناعات .. و .. و .. قرأنا هذا على جدران المعابد .. المقابر .. وقراطيسكم المدونة ..
- ماذا تريد ؟
- بعض العون ..
- أسباب التاريخ لا تقف على إرادة الضعفاء .. وحكمة الصابرين ..
- .. لا أفهم ؟

- عد إليهم .. وشاورهم فى الأمر .

. . . .

. . . .

ارتاح العمدة كثيراً إلى التفسير الذى اهتدى إليه شيوخ العائلات فى القرية وهم يجتمعون فى صحن داره من أجل الفتوى فى رؤياه .. وقد أكدت العرافة ما كان منهم ..

قال أكبر معمرى القرية فى صوت واهن :

- .. اذهبوا إليهم فى معابدهم .. مقابرهم .. اسالوهم ..

صرخ شيخ متمتما :

- اسالوهم .. أين ينابيع الذهب .. وكنوز الأرض ؟

وقال الشيخ العاقل :

- فقط اخبروهم بالأحوال والأهوال ..

قال الشيخ الحويط :

- نختار وفداً من فتية القرية .. وعلى كل عائلة أن تقدم فتاها ..

قال شيوخ المجلس فى شبه إجماع :

- أصبت أيها الحويط ..

. . . .

. . . .

- الطريق طويل وشاق يا أبنائى ..
- لا خوف علينا ..
- سوف تذهبون عبر ممرات وطرق سحيقة وسراديب مظلمة حتى تصلوا إلى عالمهم البعيد ..

- قرأنا قراطيسهم المدونة .. عرفنا الكنز ..

. . . .

. . . .

- اذكرونا بالسلام عند أجدادنا .
- سوف نفعل دون ما وصاية .
- لا ترددوا على مسامعهم ما يروجه رعاع القرية بأنهم سحبوا كل كنوز الأرض في أيامهم ولم يتركوا لنا شيئا سوى القحط ..
- لن نردد سوى أغنيات الأحلام الغائبة ..
- أصبتم يا فتياننا .. لا تنسوا القرابين لهم !!
- نحملها فوق ظهورنا ..
- ورسالتنا لهم ؟
- نحفظها عن ظهر قلب ..

أجدادنا .. يا أجدادنا نعرف أنكم مؤمنون .. لم تتركوا المأكل والمشرب ، الذهب ينـــام في أحضانكم إلى يوم البعث كما يـروج البعض ..
نحن أحفادكم .. نعرف الحقيقة النائمة معكم ..

لقد تركتم هذا لنا .. من أجل أيامنا العجاف الممتدة التي تأكل بعضها .. هذا تأويل الرؤيا .. ولقد جئنا إليكم .. لنحمل دروعكم الذهبية وأوانيكم .. نصارع بها شبح الجفاف الأسود .. وندخن التبغ

. . . .

. . . .

ويخرج أهل القرية في الموكب الكبير .. يتقدم منهم العمدة وشيوخ العائلات .. يودعون الفتية إلى مدخل الجبّ .. يزفونهم عبر الباب المفتوح في نتوء الصخر .

ويعودون ·· يفرشون الجبال المحيطة ·· يرقصون ·· يهللون فى حضرة العمدة والشيوخ الذين يجلسون فى مكان قصى بالقرب من فتحة السرداب ··

- لقد دخلوا بسلام ·· فرحين ·· الآن يمكنك أن تنام ·

يهمس شيخ الخفراء فى أذن العمدة فيطالعه قائلاً :

- لن نتركهم ·· سوف ننتظرهم إلى مطلع الفجر ·· حتى تثبت الرؤيــــــا ·· إلىَّ (بالنرجيلة) ··

· · · ·

· · · ·

أجهدت مراسم الوداع الكبير كل الجمع ، فنام أهل القرية كل فى مكانه ، انتظاراً للفجر الجديد ، حتى إذا أطلت الخيوط البيضاء ، هرع شيخ الخفراء مفزوعا يوقظ كبيرهم والشيوخ :

- ·· اصحى يا عمدة ··لقد أغلق باب المغارة ·· والفتية بالداخل ·· فهب العمدة مذعورا ·

- من فعلها ؟

- لقد صبوا لعنتهم ··

- هل حاولتم فتحه ·· تدميره ؟

- ·· لم نفلح ··

تماسك الرجل ، تطلع إلى ناس القرية النيام والشيوخ حوله ، قال فى ثبات بعد أن لملم ذهوله :

- الحمد لله ·· لقد اكتملت المعجزة ·· اذهب إليهم ·· اجمعهم ·· أعلن فيهم الأفراح والليالى ···

وتنطلق الأبواق ، تدق الطبول ، الدفوف ·· يتخبطون ·· يزغردون ·· يريدون النبأ العظيم ·· فيصرخ العمدة فيهم والشيوخ حوله :

- يا أهل القرية ابشروا •• تحققت المعجزة •• أغلقت المغارة أبوابها على فتياتكم •• هنيئاً لهم بما كسبوا فى أحضان أجدادهم •• وهنيئاً لكم بما صبرتم •••

فقى يوم ما •• سوف يبعثون أحدهم لاستبدال ورقهم •• فارقصوا •• وهللوا فى انتظارهم •••

• نشرت بمجلة الثقافة الجديدة / العدد ٤٦ / يوليو ١٩٨٣



اللعنة

وتصفعنى صرختها المدوية ترج البيت ، تشطر جدرانى ، وتزلزلنى أبداً نبوءة الزمن المأفون ..

- يا قاتل أبيك .. يا قاتل أمك .. سيقتلك لسانك يوما .. تصب لعناتها فوق رأسى ، تحرقنى من جديد ، تؤود ثرثرتى الصغيرة وقلبى المشـــروخ لا يعى ما كان منى ..

- كان يحبها .. كانت تحبه .. سامحك الله ٠

لكنى كنت أهرع إليه عندما يركن إلى المقعد الخشبى المتهالك بجوار باب المدخل ، أفرغ تحت قدميه كل ما رصدته الأذن والعين فى غيابه عن البيت طول اليوم ، يستنشق أخبارى قبل أن يلتقط أنفاسه ، يلقفنى بعض الحلوى وملاليم حمراء كثيرة ، يجمعها لى دائماً ، يضحك من كل قلبه ، ويضحك .. فابحث فى رأسى الصغير عن أمور أخرى تطربه ، وأزرع الأكذوبة فى أحايين كثيرة من أجل أن أرى ابتسامته وأسنانه الناصعة البياض ، لم أكن أدرى أنى أدس له السم فى العسل ..

- سيدمرنا لسانك المسحوب يوما ..

تقول جدتى وهى تسحبنى من أمامه وتنهره كثيراً لتلك العادة السيئة التى يغرسها فى أرضى اللينة .. لكن جذور الشجرة تتغلغل فى أعماقى ، تملأنى ، ترتوى من شراييني ، تأسرنى ، تصلبنى إلى جدار المجهول ..

- ماذا كان منى ؟
- وشيت بمن جاءت تحل منـــــك موضع الأم ، بعد أن ضاعت أمك فى ميلادك ..
- كنت صغيراً يا جدتى ..
- بل شيطانا .. لم يهزمك سوى موت أبيك فى أحزانه ٠

وعدت أدفن وزرى فى نتوء القلب ، أجوب الأرض ، تبعثرنى أيامى فأحط ترحالى عند البئر البعيد ، أطوف حوله ٠

- (يمكنك أن تحمل اعترافك كفنا ثم تصرخ ملء ما فيك فى أعماق البئر ، تفرغ حمولة الصدر والحقيقة .. فالنائمون هناك يتلقون الاعتراف دوما من ذويهم) ..

وأركب حافة البئر المبتورة ، أفرغ ندائى الأكـــبر (سامحنى يا أبى)

يهوى إلى القاع الغويط ، يتلاطم بسطح الأمنيات الواسع يغوص بحثا عن خلاصى المفقود فيرتد صدى صوتى ، يلطمنى ، يخذلنى مرة أخرى ، فأصرخ ، وأصرخ ...(أبى هل تسمعنى ؟) ..

ماتت الأفراح فوق الشفاه منذ عششت اللعنة فى وجدانى ، وتراكمت جبال الخزى فوق ظهرى ، تشدنى إلى الصمت ، فعدت أربط لسانى ، أغمض أذنى ، أخرس عينى .. لا أسمع ، لا أرى ، لا أتكلم .. لا يفهمنى أحد ..

حتى جاءنى الرجل الكبير ، يربت على كتفى .. قد كان الرجل طيبا مثلك يا أبى .. يسمع لى دونهم ، يطرب لكلماتى الطيبة المحدودة ، ينشد المزيد ، كثيراً ما ردد أن الحدث جلل ...

- قطعت عهدا ألا أفشى سرا .
- ماذا يخططون .. يدبرون ؟
- ذبحنى لسانى يوما .
- سيقتلنا صمتك تلك المرة .
- .. (إن العهد كان مسئولا) ..
- لا تخف .. سرك فى بئر ..
- لكن .. جدتى .. النبوءة
- لا عليك .. تعرف الكثير الذى يدينيهم من موقعك .. ألست أمين سر مجلسهم ؟
- أساءوا الاختيار .
- بل أراد الله بنا خيرا .. أن تكون رقيبنا عندهم .. لماذا جاءوا ؟
- يبغون ... ويبغون ... ويدعون ...

- .. أوراقهم ؟
- يحملون كشوف البركة .. ومفاتيـــح الأحلام الموعودة .. و .. و .. و ..
- هذا يكفى .. لا تستطرد .. دعنا لهم .

. . . .

. . . .

(أبى هل تسمعنى ؟) ..

أفسح لى مكان إلى جوارك .. ساهرب إليك ، بعض السادة يريدون رقبتى .. أطلقوا فى إثرى عبيدهم الجوعى ، وكلابهـــم المدربة الضاريـــة ، ينبحون ، يصرخون ...

(مجنون .. مجنون .. ضيّعت العمولة والكنز .. فضحت أمرنا) ..

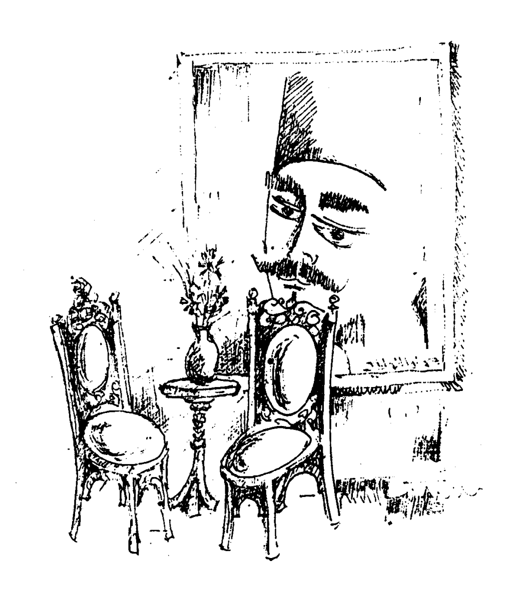
حاولت كثيراً أن أتطهر ، أنفض أشلائى من عادة الأمس الخبيثة ... لكن سر الكلمة لا يموت أبدا .. يختفى فى أحيان كثيرة حتى تحين الفرصة فإذا الحقيقة فى الناس تبلغ العهد والقسم ..

. . . .

. . . .

(يا أيها الملأ .. هذا بذرى أنا .. إن كنتم فى شك من أمرى ، فادلوا بواردكم .. ستجدوننى قابعا فى القاع .. أنتظر فارس الطواحين القديمة .. يأتى من جديد .. يصارعها .. يرفعنى .. يطهرنى من رجسى القديم .. يحررنى من أسرى) ..

• نشرت بجريدة الأيام السكندرية ١٣/٨/ ١٩٨٩



بابا
الباشا

الإشارة الحمراء فى التقاطع الكبير .. تصرخ .. قف .. أُزعن لأمرها .. أوقف العربة .. أتطلع إلى وجهه الملائكى ، يغط فى سبات عميق ، فوق المقعد الذى عن جوارى .. يغفو ويصحو على حين غفلة

ترى هل يعى ما كان من أمر هذه الأمسية الحرجة ؟ ..

. . . .

. . . .

(بابا الباشا) ..

هكذا عرفنا الرجل منذ العود الأخضر ، يرجع أصل التسمية المحفورة بذاكرتنا إلى أمه (جدتنا الكبيرة) فى الزمن البعيد الذى لم ندركه ... لم يصلنا من أخبارها سوى تلك النوادر المحفوظة فى قلب العائلة ... نردده جيل بعد جيل .. نضحك لها ونتفكه ...

يرددون أنها أفرطت فى البدانة فى أيامها الأخيرة .. ترهل جسمها .. تعثرت حركتها .. ثقل لسانها ... تنطق الكلمات غريبة ، تشبه لكنات صديقاتها من سيدات الجاليات الأجنبية اللاتى تعرفهن .. تبعد عن حياتها فى الحى الفقير الذى نبتت فيه .

- اسمه (الباشا) ..

هربت إلى إحدى الأحياء الجديدة – شرق المدينة فى ذاك الوقت – تحلم له .. ميراثها الوحيد ، كل ما خرجت به من الدنيا بعد رحيل زوجها الثرى ..

- سوف أشترى له البكوية .. والباشوية من بعدها .. فهو غض .. بض .. يجيد سبع لغات أجنبية .. يتحدثها بطلاقة .. ربيته كما أردت .. ألستم معى فى أنه يستحق ما أحلم به ؟

ونامت المرأة فى حلمها الأبدى ، بعد أن توجته ولياً على العائلة الفقيرة من بعدها .. لقنته كثيرا :

- أوصيك خيرا .. هم أهلك .. لا تقطع جسور الود معهم حتى لا تكون وحيدا فى هذا العالم ..

وعاد الرجل يغترف من أيامه الطيبة ، يدثرنا بالدفء .. يشاركنا أفراحنا .. و .. وأتراحنا ..

لم ينس وصايا أمه الأخيرة بالرغم من ترحاله وأسفاره البعيدة .. تزوج أجنبيات من جنسيات مختلفة بعدد البلاد التى عمل بها فى الخارج - واللغات التى يعرفها .. طلقهن جميعا ..

لم ينجب طوال رحلته ، حتى عاد أبناء العائلة الفقيرة أطفاله .. أحبوه جميعا - الآباء ، الأعمام ، الأبناء ، الأحفاد - وعادوا ينادونـــــه .. بابا (الباشا) .. الاسم الذى يطربه كثيراً .. يذكره بالحلم القديم .. يتنهـــد .. (تغيرت الأيام يا أمى) ...

كنا ننتظره فى سبتمبر من كل عام .. نهرع إليه يجمعنا فى مصيفه بالمعمورة . ولم يكن غريبا أن يربط أبناء العائلة أفراحهم ومناسبتهم الكبيرة إلى تلك الأيام ... فالأبناء والأمهات أشد حرصا على أن يبارك الرجل بحضوره زواج أبنائهم .. كما باركت أمه زيجاتهم من قبل .. يتفاءلون لذلك ..

- لقد اختارتنى أمه لأبيك .. (قالت أمى ذات يوم) .
- .. وأنا أيضا زوجتنى أمه .. (قال " عمى " فى مناســـبة لا أذكرها)
- .. أنا وخالك .. أول زواج يتم على يد بابا (الباشا)
- .. لذلك يغمركم بالخير كله .. يا عمتى ..
- .. أغتنم الفرصة .. دعه يباركك ..

. . . .

. . . .

- .. ولماذا سبتمبر ؟
- .. من أجل .. بابا (الباشا) .
- .. لا أفهم ؟

وعدت أشرح للدكتور (شعلان) - والد خطيبتى الذى ضاق ذرعا بتأجيل الزواج إلى شهر سبتمبر - ما جرى فى عائلتنا من أمر الرجل ..

- .. وهل تطمع فى مساعدة منه ؟
- .. أبداً .. أنا جاهز تماما .
- .. إذن .. لماذا ننتظره ؟
- .. لأنه .. لأنه ...

. . . .

. . . .

تطلعت إلى إشارة التقاطع الكبير .. ما زالت حمراء .. والرجل يغط فى سبات عميق ..

حمدت الله فى نفسى أن تمت مراسم عقد القران فى غرفة مغلقة ، ضمت الكبار فقط .. فما حدث كان محرجاً لكل الحضور ..

ما أن وضع الرجل يده فى يد الدكتور (شعلان) حتى راح فى إغفاءة لم ندركها من تحت نظارته .. لكن الشخير العالى يفضحه .. ينبه الحاضرين إلى فعلته ، فلكزه (المأذون) مرتين .. ليردد خلفه طقوس العقد ..

أسرعت خلف أبى بعد إتمام المراسم .. أهمس إليه .. أبثه جرحى ..

- .. الرجل ينام ..
- .. أنت الذى أحضرته بنفسك .. تعرف أنه مريض .. عليك أن تعيده الآن .

تركنى أبى وانصرف يرحب بضيوف العائلة الذين يملأون الصالة .. سحبت أمى إلى غرفة قريبة .. أبثها حرجى .

- الرجل ينام ..
- لا عليك .. هكذا كانت أمه فى أيامها الأخيرة ..
- لماذا لم تخبرينى بذلك ؟
- .. نسيت يا ولدى ..

وارت ضحكتها .. ثم انسحبت من أمامى ، هاربـــــة فى (زغـرودة) طويلة ، تسبقها إلى الصالة ...

خرجت فى إثرها .. أرحب بضيوفى .. أتلقى التهانى .. والأمنيات .. ثم أسرعت وعروسى نقف على رأس (البوفيه المفتوح) .. أمام (تورتة) العرس متعددة الأدوار .

لكنى لمحته .. ينزوى فوق أحد المقاعد فى ركن قصى من الصالة الكبيرة .. هزنى منظره .. أشفقت على ما كان من أيامه الطيبة معنا .. أسرعت إليه أوقظه من غفوته .. أسحبه ليقف بينى وبين عروسى على رأس المائدة الكبيرة التى افترشت باطباق الحفل ..

لقفته السكين ، ليكون له شرف قطع (التورتة) وافتتاح البوفيه .. فالكل ينتظر ..

ما حدث كان سريعا .. (التورتة) .. ال .. ت .. ت .. ت .. توووورتـه .. تترنح فى زلزلة الرجل .. تسمرنى المفاجاة فى مكانى .. تشلنى لا أستطيع .. يندفع الدكتور (شعلان) من خلفنا ، وأياد أخرى تمتد من حولنا فى محاولة لتلقفها قبل أن تتهاوى .. لكنها تسبقهم جميعا إلى أكتاف الرجل .. صدرى .. الفستان الأبيض .. تتناثر فتافيتها .. تصيب بعض الحضور فى أناقتهم .

- لماذا أحضرته ؟ .. ألم أخبرك .. الرجل مريض ..
- نام الرجل قبل أن يبدأ يا أبى ..
- أمه كانت تفعل ذلك ..

ـ تضحكين دائما يا أمى ..

ـ .. دعها تضحك .. دعهم يضحكون .. أليس هذا يومنا ؟

ـ .. فقط أريد أن ..

ـ .. لا عليك .. نحن أهل ..

وتزغرد أمى طويلا .. تشدهم من الدهشة التى بلعتهم .. فتضحك .. ويضحكون ..

ووجدتنى أصحبه للخارج .. أمسح ما يلطخ بذلته .. وهو فى نصف إغفاءة .. مثلى لا يعى ما حدث .

خرجت به إلى سيارتى فى طريقنا إلى منزله ، وما زالت أصداء تلك الضحكات ترن فى أذنى .. والخجل يبللنى ..

. . . .

. . . .

الإشارة الصفراء فى التقاطع الكبير تقول .. استعد .. يصحو الرجل فجأة على حركة استعدادى .. يسألنى :

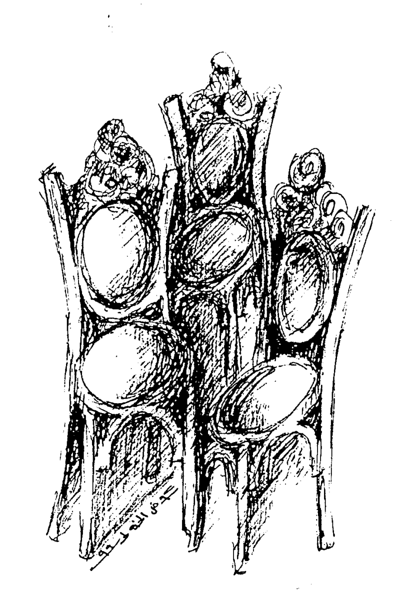
ـ لماذا كانوا يضحكون ؟

تلعثمت لسؤاله المباغت .. حاولت أن أتصيد أكذوبة فى رأسى حتى لا أحرجه .. صوت أبواق العربات خلفى ينقذنى من ورطتى .. ينبهنى .. الطريق مفتوح ..

ـ لماذا يصرخون ؟

حاولت أن أرد عليه وأنا أدير العربة .. لكنه هرب منى فى إغفاءة أخرى .. تطلعت إلى الإشارة الخضراء فى التقاطع الكبير .. تصرخ فى وجهى .. انطلق .. فانطلق ...

• الإسكندرية ١٩٨٨/٩/١٦



المقاعد

• المقعد رقم (١) ••

يمكنك أن تضبط ساعتك إلى مقدمه ، هكذا عهدناه جميعا •• تفرحنا طلعته – مسيو (يسا) – فالكل ينتظره •

لا يزيد ثانية ولا يتأخر عن ميعاد مغادرة أتوبيس الشركة – التى نعمل بها – لمكانه أمام نادى النقابة ••• نجتمع أمامه فى الساعة الواحدة ظهر الخميس – كل أسبوعين – ينقلنا من السويس إلى ذوينا هناك فى الإسكندرية ••

ما أن يلمحه سائق الأتوبيس حتى يسرع إلى كرسى القيادة ، يأخذ موضعه أمام عجلة القيادة ••

لكنه تأخر تلك المرة على غير العادة •• لم يفعلها من قبـــل ، الأمر الذى جعل السـائق يلتفت إلى رفاق الرحلة لعله يستشف شيئا فى عيونهم ••

كل يجلس فى مكانه ما عدا الكرسى – رقم (١) – الشاغر خلفه مباشرة فى انتظار مقدم الغائب ••

تطلع فى المــــرآة إلى الوجوه القلقة ، تنتظر قرار المشرف الذى سرعان ما أطلق تنهيده ممطوطة من وسط العربة ، كأنه يأخذ قرار الحرب ••

ـ (توكلنا على الله) !!

أدار السائق مفتاح المحرك •• المارش •• ضغط على صمام البنزين قليلا •• ارتفع هدير المحرك •• دارت العربة •• تنهد فى ارتياح بالغ :

ـ (سمعونا الفاتحة يا جماعة) !!

• مقعد السائق

لعل الخاصية الغريبة لهذا الأتوبيس أن الركاب موزعون من صف إلى صف طبقا لدرجاتهم الوظيفية بالشركة .. الصف الأول للمديرين ومن فى حكمهم .. الثانى للنواب .. الثالث للوكلاء .. السابع لكبار صغار الموظفين .. وهكذا بالتتابع من صف لصف .. وفى الصف الأخير الموظفون الجدد ومن فى حكمهم .. وعليهم أيضا أن يركبوا العربة من الباب الخلفى (إن كان صالحا) ...

وهذا النظام الطيب يحول دون احتمال إزعاج الصغار للكبار .. ويضمن أن يكون ركاب كل صف من فئة متجانسة لها تقاليدها وعالمها الخاص ..

- .. أم كلثوم لو سمحت يا (أسطى عبده) ..
- .. بل بعض الموسيقى أفضل ..
- ... وما لها (السمسمية) ؟
- هذا السائق يتحكم فى أذواقنا !!
- .. كان الحاج (إسماعيل) - رحمه الله - لا يفتح (الراديو) ولا يستعمل (المسجل) ..
- .. معه حق .. ففى رحلتنا لا يتفق اثنان ..

. . . .

. . . .

• المقعد رقم (٢٤) ..

- لماذا تأخر الرجل تلك المرة ؟
- كان يحترم المواعيد ويقدسها !!
- هذا أمر طبيعى .. لقد عاشر الأجانب كثيرا .. وأمه أيضا فرنسية ..

- .. أعتقد يا أستاذ (يوسف) .. أن أباه هو الفرنسى وليست أمه .
- .. إن أردتم الحقيقة .. لا أباه .. ولا أمه .. بل زوجته الأولى .. أم أولاده ..
- تعنى أنه تزوج مرة أخرى ؟
- الثانية يونانية .. والثالثة ...
- كفاك إشاعات يا حاج (جدوع) .. ما زال الرجل أعزبا !!

احمر وجه الحاج (جدوع) - مشرف الرحلة - خجلا ، بينما ضج جميع الزملاء بالضحك أمام القفشة التى تصيدها له الأستاذ (عباس) - وكيل شئون الموظفين بالشركة - لا شك أنه يعرف بياناتنـــا جميعا بحكم موقعه ، ولو أن أحداً غيره قالها لجادلنـاه كثيراً ، كعادتنا فى كل الأمور والأخبار البسيطة التى ننفخها .. نضحك لها ، طول الرحلة ...

. . . .

. . . .

- المقعد رقم (٢٠) ..

لقد سعدت بثقافة الرجل الواسعة - أسمه (ياسين) لكننى عاهدتهم ينادونه مسيو (يسا) - عندما جلست إلى جواره ذات يوم .. ولولا غياب سعد (أفندى) - عضو مجلس إدارة الشركة المنتخب عن العمال - الذى يشغل المقعد رقم (٢) ما سنحت لى الفرصة لاكتشاف الرجل ..

فعدت أهرع إلى جواره كلما تخلف سعد (أفندى) تاركا مقعدى - رقم (٢٠) الآن - للآخرين ، بعد أن أستاذن من المشرف فى كل مرة ، فكشف الحجز فى يده ، يعلن هويتنا ، يعرف ملامحنا ، أقدميتنا بالشركة ... يرتبنا فوق المقاعد ...

مضى زمن بعيد منذ كنت أشغل المقعد رقم (٤٠) .. تطلعت خلفى - يشغله الآن مهندس جديد بالحاسبات الإلكترونية ..
- متى نجلس فى المقاعد الأمامية ؟

(يصرخ صوت فى آخر العربة مداعبا)

- .. لما تطلع على المعاش بإذن الله ..

يضج الأتوبيس بالضحك لهذا التعليق الخاطف .. بينما يتلفت بعض شاغلى الصفوف الأمامية إلى حيث يجلس المشرف .. ينظرون شزرا إلى نكتته السخيفة التى نبهتهم إلى الحقيقة النائمة فى صدورهم ..

- .. الحاج (جدوع) ثرثـار كبـير .. يطرب البلهاء بثقافته المهترئة وذوقه المبتور ..

لقد أعرب لى - مسيو (يسا) - كثيرا عن ضيقه من تلك التعليقات السخيفة ..
- لا يجب أن نجرح مشاعر الآخرين عندما نريد أن نبتسم .. ألست معى ؟

كان يخفى امتعاضه من بعض التصرفات غير المسئولة والمداعبات الصبيانية .. يدفن نظراته فى الكتـاب الذى بين يديه ..

تلفت حولى أبحث عنه .. أفتقده .. ما زال كرسيه شاغرا .. لماذا تخلف تلك المرة ؟

. . . .

. . . .

• المقعد رقم (٢) ..

ما زال محجوزا باسم (سعد أفندى عسكر) - عضو مجلس الإدارة المنتخب عن العمال - الذى كثيرا ما يتخلف عن رحلاتنا لانشغاله بالمأموريات العديدة والبعيدة التى تتعلق بأمور الشركة ... وإلى الرجل يرجع الفضل فى تسيير هذا الأتوبيس من السويس إلى الإسكندرية مرة كل أسبوعين .. كان ذلك فى الزمن البعيد .. عندما كان الرجل شابا فتيا - كانت الشركة تحت التأسيس وفى حاجة إلى من يحرك أمورها ، فتم انتداب بعض الخبرات من شركات البترول المماثلة بالإسكندرية - وقف يسألنا فى النقابة :

- ... مشاكلكم ؟
- ... نريد أتوبيسا ..

. . . .

. . . .

• المقعد رقم (١٢) ..

يحاول محروس (بك) - الذى يجلس فى المقعد رقم (١٢) - أن يبدو ظريفا ، لطيفا .. يسرب نكتة أو قفشة .. يستدر عطفنا كى نضحك لها .. لم يعر أى منا اهتماما من قبل .. لم نعهده يبتسم أيام كان يجلس المقعد رقم (٢) .. كان متقطرسا دائما .. يرد على تحياتنا له بابتسامة ميتة ..

يعمل الآن بعقد مؤقت فى القسم الذى كان يرأسه من قبل إحالته للمعاش .. ويطلقون عليه (مستشارا) احتراما لمنصبه القديم ..

- (سبحان من له الدوام) !!

يطلقها الحاج (جدوع) فى تنهيدة مدبوحة .. نعرف ما يرمى إليه .. فقد تسبب الرجل فى مجازاته ذات يوم ، عندما كان يسخر من بعض الأمور التى تمس الشركة ..

. . . .

. . . .

• **المقعد رقم (٤٠) . .**

كانت درجتى الوظيفية تربطنى إليه ، لا تسمح لى بالتخطى إلى المقاعد الأمامية .. سنوات بعيدة مضت منذ كنت أشغله .. شغله بعدى محاسب .. لا يركب معنا الآن .. اشترى عربة .. ثم شغلته من بعده المدام (عواطف) ـ كانت (دينامو) الشئون القانونية ـ التى آثرت أن تستقيل لمراعاة أبنائها بعد أن التحقوا بالجامعة .. (حقوق .. طب .. هندسة ..) .. ثم شغله الأستاذ (يوسف) الذى يجلس الآن على المقعد رقم (٢٨) ـ نال هذا الحق بعد الإصلاح الوظيفى الأخير ـ ثم يجلس عليه الآن فارس الأحلام الإلكترونى ..

- .. نشاط أمى يفزعنى .. تتردد كثيرا على بنات العائلة .
- .. تبحث لك عن مصيدة .
- لكن قلبى بين نارين .. الفتاة التى أحبها .. والفتاة التى تحبنى ..
- .. أمران أحلاهما مر ..

. . . .

. . . .

• المقعد رقم (١) ••

كان - مسيو (يسا) - رجلا يجيد الكلام ، ويجيد الصمت ، قرأ أدب العالم في لغاته الأم •• يعرف ست لغات •• (حسدته كثيرا في نفسي) •• شهد الكثيرون بكفاءته في العمل •• يبذل جهدا فوق العادة في ترجمة الوثائق والمستندات الهامة الخاصة بالشركة • أبداً لم يفش سراً ، أو تباهى بالمكتبة المدفونة في رأسه •• لم يبخل يوما بالنصح والتوجيه بمعلوماته ، فقد كان أرشيفا متحركا •• حتى عادوا يتهامسون ويتساءلون : من يستطيع أن يشغل مكانه ؟ فقد اقتربت أيام الرجل ••

نظرت إلى الكرسي الشاغر - رقم (١) - عن جواري •• تملكني الفزع ••

- هل لاحظت أنهم يكررون نفس الكلام في كل رحلة ؟
- •• يبدأون بالحوافز •• وينتهون بالسمك ••
- •• ويتكلمون في السياسة أيضا ••
- لم نجرؤ على ذلك يوما ••

• • • •

• • • •

ما أن وصل أتوبيس الرحلة إلى الاستراحة الرئيسية على الطريق السريع ، حتى أسرعت إلى كابينة التليفون أطلب مكتب الاستعلامات بالشركة ، أستفسر عن أسباب تخلف الرجل ، بينما رفاق الرحلة يركنون إلى موائد الاستراحة الداخلية ••

- •• أريد أن أتصل بمسيو (يسا) •
- لقد تم نقله لغرفة العناية المركزة بمستشفى الشركة ••
- ماذا تقول ؟

- يرددون أنه أصيب بازمة قلبية حادة ..
- متى حدث ذلك ؟
- ··· وجدوه مغشيا عليه فى مكتبه بعد انصراف جميع الموظفين وفى يده الخطاب اللعين ..
- ماذا تقول ؟ ارفع صوتك .. لا أسمعك ..
- .. أقول .. وجدوه مطبقا على خطاب الشركة الذى يخطره بإحالته إلى المعاش .. وأعتقد أن .. تك .. تك .. تك ..

. . . .

. . . .

- طموح أنت يا رجل ..
- .. يفضحنا ذكاؤك دائما ..
- بل تفضحك ملامحك عندما تسرع إلى الكرسى الشاغر عن جوارى فى غياب صاحبه .. وحدك دونهم تفعل ذلك ..
- فقط أتذوق طعم المقاعد الأمامية ..
- .. وبماذا شعرت ؟
- شىء من الدفء .. نفتقده فى المقاعد الخلفية .. أحسدكم عليه كثيراً ..
- هل فكرت .. وماذا بعد كل هذا الدفء ؟
- لا أفهم ما ترمى إليه ؟
- سوف تلقى بنا المقاعد خلف ثلوج الطريق الوعرة .. نبحث من جديد عن أشياء تدثرنا فى برودة الزمن القادم ..
- آسف .. لم أحسب لذلك ..
- لا عليك ..

. . . .

. . . .

• المقعد رقم (٢٠) ••

عدت مهزوما ، مفجوعا إلى مكانى المحدد - فى كشف الرحلة - بالمقعد رقم (٢٠) •• بعد أن استاذنت من شاغله أن يجلس إلى المقعد رقم (٢) •

- هل يمكن أن تنتهى رحلتنا - مثل الرجل - فى غرفة الإنعاش ؟
- •• ويمكن أن تنتهى أيضا فوق مقاعد متحركة ••
- •• عندها لا نحتاج إلى كشف يوزعنا ولا أرقام ••

انطلقت القفشات والتعليقات تلاحقنى من كل أركان العربة •• أبلعها على مضض •• وتتداخل الأغنيات •• الصرخات •• الدخان •• الضحكات ••

السائق خلف عجلة القيادة •• يبتسم •• خلفه الكرسى رقم (١) شاغرا •• ترى من سيشغله اعتباراً من الرحلة القادمة ؟

تطلعت للوجوه الأمامية •• أتفرسها •• من منكم سيتقدم عن صفه ؟ الرحلة تبدو طويلة •• ونسمات مجهولة تجثم على صدرى •• أريد أن أتقيأ ••

• نشرت بمجلة القصة العدد ٦٤ أبريل ١٩٩٠



انتظار

لا أريد للعيون الشامتة أن تشيّعنى إلى فداحة ماساتى ، أريد أن أصل قبل الجرحى جميعا ، أحتل مكانا متقدما فى صفوفهم ، لعلهم يسمعون صوتى ، يرأفون لحالى ، عندما تصطدم عيونهم بجسدى الذى نخزته الكارثة ٠

- كنت أول من يضحى بالأرض ٠
- .. لا .. بل كنت شريكا فى مشروعهم الكبير ٠
- .. نصحناك كثيرا لم تستجب ٠
- سحرتنى كلماتهم ..
- .. لك الله يا عبد الباقى ..

ألقيت بنفسى إلى أقرب مقعد من رصيف القطار ، دفنت حقيبتى الصغيرة فى صدرى ، ينام داخلها أوراق ماســاتى ، وكذبتهم الكبرى ..

ركنت ظهرى إلى الكرسى المتهالك ، تطلعت حولى فى نظرة خاطفة إلى الوافدين من كل اتجاه .. زحام .. زحام ..

أخبار .. أهرام .. جمهورية .... يا ولد .. الجريدة يا ولد ... كلنا فى انتظار القطار القادم ٠

- كرهت زمن البركة ٠
- لماذا الآن ؟
- عدت أعى مفردات اللعبة ٠
- إذن .. خذ ماساتك فوق ظهرك .. أهرع إليهم .. إنتشل بقاياك ما أمكن ٠

عدت أكره كل ما يذكرنى بهم .. إنى أختنق ، أكاد أتقيأ .. تحسست جسدى ملياً ، مسحت تضاريسى ، تنبهت إلى مصدر الألم .. إنه الحذاء الجديد .. آخر ما اشتريته من معارضهم ٠

- لكن ثمنه مرتفع جداً !!

- .. ماذا دهاك .. ألست شريكنا ؟
- .. نعم .. لكن الحق أقول ..
- ادفن الحق فى صدرك يا أخى .. ودعنا نعمل .

أريد أن أصرخ .. إنه يعصر أصابعى .. يخنق قدماى ، لذلك آثرت أن أطلق لهما العنان حتى يستريحا فسحة من الوقت ، ليمارسا بعدها صراعهما معه ..

خلعت الحذاء خلسة .. ركنته تحت المقعد .. تطلعت حولى .. لم يرنى أحد .

تصفحت الجريدة التى أضلتنى ذات يـــوم ... إجراءات لإعادة أموال المودعين من الخارج ... المانشيت الكبير يرد لى أنفاسى ..

فاملأ رئتى بشهيق الأمل .. وتنطلق الأشعة الساقطة من عينى تغطى كل مساحة الأنباء .. تلهث وراء أخبارهم المدفونة فى أركان متفرقة ... اتصالات دولية لتحديد الأرصدة بالخارج ، ولجنة عليا لاسترداد الأموال ..

هكذا أصبحت طرفا فى قضية دولية .. (أمى) .. هل كنت تقرئين النبوءة فى عينى البلهاء وأنت تزرعين وصاياك فى صــــدرى .. (الأرض كالعرض .. لا تفريط) ..

- ولماذا أرضى يا سادة ؟
- هى مشروعنا .. يغسلها البحر الكبـــير .. ويدثرها الوادى الخصيب ..
- أمهلونى .. أفكر .
- مثقف أنت دونهم .. لذا اخترناك .
- .. نعم .. كنت أقرأ الجريدة منذ العود الأخضـــر ، حتى افترشت خريطة الشّيب مساحة الرأس .

ـ .. إذن .. فانت تطالعنا كل صباح .. نطل عليك باخبارنا .. نقرؤك السلام .. أليس كذلك ؟

ـ .. نعم .. وكنت أســـــال نفسى كيف ناطحتم السحاب ؟

ـ لا عليك .. تعال حلق معنا ..

ـ كيف السبيل ؟

ـ أنت بالأرض .. ونحن بالباقى ..

كدت أصرخ .. ألطم الخدين ، أرفع تراب الأرض فوق رأسى كما كانت تفعل نسوة البلدة فى النكبات الكبرى ..

دفنت رأسى فى السطور الممسوخة أمامى ... الحكومة لن تشترى أصول شركات تلقى الأموال ... وداعاً مستر (ريجان) ... التليفزيون يقيم مهرجاناً كبيراً فى عيد الطفولة .. والزمالك يتصدر قائمة الدورى .

الدقات فوق رأسى ، تنبهنى لمغادرة القطار الذى أنتظر .. يبلع فى جوفه كل المسافرين .. يتحرك من رصيفه .. ينطلق .. فاخطف حقيبتى .. أجرى .. أنطلق فى إثره .. تشيّعنى دقات جرس المحطة .... أجرى .. أجرى .. أقفز إلى جوفه مترنحا .. ألهث بعد الجهد الكبير .. لذا آثرت أن يكون المقعد الذى أركن إليه بجوار النافذة ما أمكن ، حتى يتسنى لى أن ألتقط أنفاسى ..

أخرجت رأسى من النافذة .. أتصيد نسمة هواء ، والقطار يبعد عن رصيفه .. ألمح المقعد الذى ركنت إليه فى المحطة .. فوقه الجريدة التى انصهرت فيها .. تحته .. يا خبر (...) .. الحـــــذاء .. (حذائى) !! .

أصرخ .. فتصطك العربات بجدرانى ... وصوت أمى .. يهرسنى فوق القضبان ..
(الأرض كالعِرض..لا تفريط) ..

تزلزلنى السرعة المجنونة ، ونسمة الهواء لم تصلنى بعد .

فاتشبث بالحقيبة فوق صدرى .. أصرخ من جديد ... والقطار لا يسمعنى ..

• الإسماعيلية ١٩٨٨/١٢/١٢



امرأة
على
الهاتف

فى وحشة الطريق .. أتدثر بدفء نبراتك .. رائحة أنفاسك .. أتخذ منهما الحارس القوى فى غيابك .. أبدا لن تزول كلماتك .. تلك التى حفرتها فى جدران قلبى نبراسا .. يضىء لى الطريق كلما أثرت أن أسلكه وحدى ...

ـ (يمكنك أن تهتف .. أفراحك .. أحزانك)

ماتت أمى .. قبل أن أقرئها السلام .. أعتذر لها عن جريمتى الكبرى اغتلتها فى الميلاد الأول .... (لا ذنب لك) .. وأبى يدفن نفسه فى أعماله الكبيرة ..

لكن البرعم الأخضر الصغير يبكى فى كل حين .. بعد أن اختفى ذوو القربى فى أركان بعيدة .. يخافون الشؤم فى العيون ..

ـ (من لك فى المدينة البعيدة ؟) .. تهمس ابتسامته فى أذنى .. ألمح فاتورة التليفون فى يده .. تفضحنى عنده .. (تحبها ؟) (أحبها يا أبى) .

ـ (اهتف لى .. كلما ألمت بك ضائقة) .. أحببت فى مساء كل أربعاء .. لقائنا .. هكذا قررت أنت ذات يوم .. حرصا على وقتى .... (انتهت أحزانك الصغيرة) ... على أنى أدبر لك مفاجأة كبرى .. سنزور مدينتكم .. أخبرنى أبى .. صديقه مريض .. فاهرب منه إليك .. سنوات كثيرة .. يحسب طفلك الشقى لهذا اللقاء ..

مريض .. قلق .. لا أفهم بعض الدرس .. أنقل إليك همومى جميعا عبر بوق الهاتف .. أنت على الجانب الآخر .. تنصتين كثيرا .. (تذرع بالصبر .. رتل بعض الآيات) ... يود طفلك لو تمسحين على رأسه .. تربتين على ظهره .. يقبل يديك .. تشدين على أذنه .. لمداعبته لك فى الزمن البعيد .

ـ وتسمعين لى ؟

ـ نعم .. ألست طفلا يحبو ؟

ـ بل رجل تتشبث قدماه بالأرض .

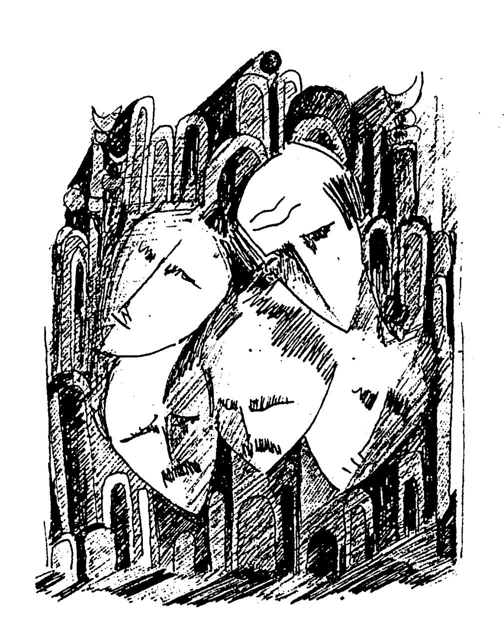
- لا أستشف ذلك فى نـبرات صوتك المسح .. لماذا لا تصارحنى ؟
- ملأتنى الهموم يا .. بربك من أنت ؟
- جَدتك .. يروق لى .. أن تنادينى هكذا ..
- تخوننى شجاعتى تحت سخريتك الدائبة ..
- لا أسخر منك يا ولدى .. بل حقيقة .. رأيت فيك (ياسر) حفيدى يعيش معى .. نمضغ وحدتنا .. منذ مصرع والديه .
- آسف .. يا .. جدتى ..

هكذا هتفت إليـك .. منذ ساقتنى أقدارى .. أعبث بالدليل .. أطلب رقما ما .. بالمدينــة البعيدة .. أقتل وحدتى فى غياب الأب ..
تخلعين عنى مرارة أيامى القديمة (اهتف لى .. كلما ألمت بك ضائقة)

قلبى المقبوض .. يحدثنى أن هناك شيئا ما .. أسرع إليك .. أدير القرص .. تتكهرب أطرافى .. أصرخ .. تسقط السماعة .. أسقط معها .. يسحبنى أبى .. يشدنى إليه .. (اتصلت بى فى غيابك .. نبهتنى لأمورك .. مريضة منذ مصرع ذويها .. تمنت أن تراك .. وعدتها بالزيارة القريبة).

مازال بوق الهاتف .. يسكب أحزانه .. أغرق فيها .. تبلغنى .. (أنا ياسر .. ماتت جدتى) .

• جريدة الأخبار ١٩٨٣/٩/٧



عزاء

ليتك كنت معنا .. لترى ..

. . . .

ما حدث منهم فى ذلك اليوم ، كان عجبا لم تدركه .. وحدك الغائب تلك المرة ..

(مات الحاج بصرى) ..

وجاء العمدة (صالح) ـ الذى أصر على الحضور من الجنوب البعيد إلى العاصمة بالرغم من وهنه ـ ليتلقى العزاء .. هدّه السفر .. التقط أنفاسه بصعوبة .. نهنه كثيراً :

ـ إنه رفيق عمرى ..

ـ صحتك .. يا عمده ..

ـ لا تحرمونى .. يا ولد ..

. . . .

. . . .

خرجنا خلف العمدة ـ بعد انتهاء مراسم العزاء فى الجمعية ـ فى مسيرة يلفها الصمت والحزن فى طريقنا إلى محطة (باب الحديد) .. نودعه فى طريقه إلى الجنـــــوب بعد أداء مهمته .. يحمله (بشير بن هانم) فوق أكتافه العريضة كما يفعل فى البلد هناك .

نقطع شارع (كلوت بك) ، نزحمه تحت العيون المتطفلة ، تتطلع فى فضول إلى شيخنا وهو يمتطى الأكتاف .

يبتسمون .. يحملقون .. ينكتون .. وحاول شباب المسيرة أن يتصدى إلى تلك النظرات التى تخدشنا ، لكن شيخنا الحكيم حسم الأمر من أعلى :

ـ لا عليك يا ولد .. ناس المدن لا يعرفون ..

لا أعرف حتى الآن لماذا تنتابنى نوبات الضحك كلما حضرت عزاءاً ؟ .. وأغتال ضحكة كادت تتسرب منى .. ربما أدت إلى محاكمة أبى وأمى بين عشيرتهم وطردهم من البلدة هناك ...

دفنت وجهى بين كفى .. حتى لا يفتضح أمرى .. فربت الذى عن جوارى على ظهرى .. يشد أزرى ..

- .. هون عليك يا ولد .. (كلنا حنموت) ..

. . . .

. . . .

وما أن اقتربنا من بيت (عواضه بنت آمنه) فى نهاية الشارع تقريبا .. كثيرا ما كنا نطلق عليه (بيت الجمعية) .. فالجمعية تقوم بالدفع بسخـــــــاء إلى (عواضه) نظير استقبالها للقادمين من البلد فى المناسبات المختلفة واستضافتهم ، فالبيت قريب من محطة القطار الرئيسية ومن الجمعية كذلك ..

كانت (عواضه) فى انتظارنا وحولها بعض الأمهات يردن تقديم العزاء للعمدة شخصياً .. لم يرينه منذ سنوات بعيده منذ حططن رحالهن فى القاهرة ، بينما سبقهن باقى النسوة إلى محطة القطـــــار .. جلس (بشير) القرفصاء ، حتى يكون العمدة فى مستوى يسمح للنساء بتقبيل يد شيخهن .. يتمرغن فوقها .. يغسلنها بدموعهن ، حتى تفصد العرق غزيراً من الوجه الشاحب الجاف ..

أسرعت (عواضه) تبحث حولها عن كوب ماء ، يرتشفه الرجل .. (يبلع ريقه) حتى لا يفطس بينهم وتكون كارثة أخرى ..

تصلها .. تن .. تن .. تن .. من إحدى الصاجات النحاسية القريبة .. تصرخ :

ـ هات كوب .. يا بائع (العرجسوس) ..

تتلقف الكوب ، بعد أن تدس ثمنها فى يد البـــائع ، تسلمها إلى (بشير بن هانم) الذى انتصب واقفا مرة أخرى .. يرفعها إلى الشيخ فوق أكتافه .. تسمرت أعيننا جميعا إلى أعلى ..

الشيخ ينفخ رغاوى الكوب الكثيرة .. يحملها الهواء لتستقر فوق الرأس والوجه تحته ..

ينفخ .. يبسمل .. وينفخ حتى لم يعد باقيا سوى رشفة واحدة .. يتحسسها بشفتيه ، ثم يعطى الكوب الذى تحته .. ينقله إلى البائع الذى وقف مبهوتا ..

ـ شكراً .. يا (عواضه بنت آمنه) ..

ابتسمت بين النساء .. فتاريـــخ عشيرتنا يسجل الآن أن العمدة (صالح) شكر (عواضه بنت آمنه) أمام منزلها بشـارع (كلوت بك) أمام حشد من شباب وناس البلد ..

انتظمنا مرة أخرى فى الموكب الصغير ، بعد أن كبحنا مشاعرنا ، وكظمنا غيظنا من تلك العيون المتطفلة التى تلاحقنا .. لا نملك لها رداً فى حضرة شيخنا الذى صرخ فجأة من فوق الطابيــــة المتحركة (هكذا كنا نشبه بشير بن هانم) :

ـ يا ولد .. الحريم فى (التروماى) ..

ألجمنا مطلبه .. فلقد لمح عن جواره تراما فارغة (ربما كانت فى طريقها إلى المخزن) ..

لم يجرؤ أى منا أن يخبره .. المحطة على بعد خطوات ..

بل أسرع (عوض شندى) ـ يحلم أيضـا بثناء العمدة عليه ـ يعترض مسـار الترام الذى يتارجح فوق القضبـــان ـ خطواتنا أسرع منها ـ يلوح للسائق ، الذى رق لحالنا .. فاوقف الترام .. ليلتقفنا ..

أسرعت النساء إلى المكان المخصص للسيدات والذى يقع خلف السائق مباشرة ، بينما ركن بعض الرجال إلى المكان المخصص لهم فى نهاية العربة ... و ... وسبقنا جمع آخر إلى محطة القطار أجلس بشير العمدة فوق المقعد ، بينما افترش أرض العربة تحت أقدامه فى انتظار أن يحمله من جديد .. " لا يكل ولا يتعب " .. أخذ العمدة يسرب بعض النظرات إلى (عواضه) من الفتحات المكنة عبر الأجساد ... (يروج الخبثاء من شباب عشيرتنا أن ثمة علاقة قديمة كانت بين العمدة وعواضه) ...

وما أن اصطدمت عيناها بعينيه حتى بكت أيامها معه :

- أنت الباقى لنا يا عمدة ..

ثم أتبعت رسالتها له بصرخة مدوية ، تؤكد وجودها .. فولولت النساء خلفها .. صرخن .. صوّتن .. دبدبن داخل العربة ..

أوقف السائق الترام .. سقط فى مكانه ، مغشيا عليـــه .. أسرع إليـــه (الكمسارى) يطبطب فوق خده .. يسأله :

- ماذا حدث ؟

- لقد هرست إنسانا تحت عجلات الترام ..

قالها السائق ثم راح فى غيبوبته ..

قفز (الكمسارى) على الفور إلى الشارع وبعض الركاب فى إثره .. يتفقدون عجلات الترام والقضبان .. لا شىء تحتها ..

- الصرخات جاءت من داخل العربة .. وليست من الشارع كما اعتقد السائق .. (قال أحدهم) ..

فقفز (الكمسارى) - الذى يبدو أنه أدرك شيئا ما - إلى داخل العربة صارخا .. لاعنا :

- انزلوا .. يا ولاد الـ (كلب) ..

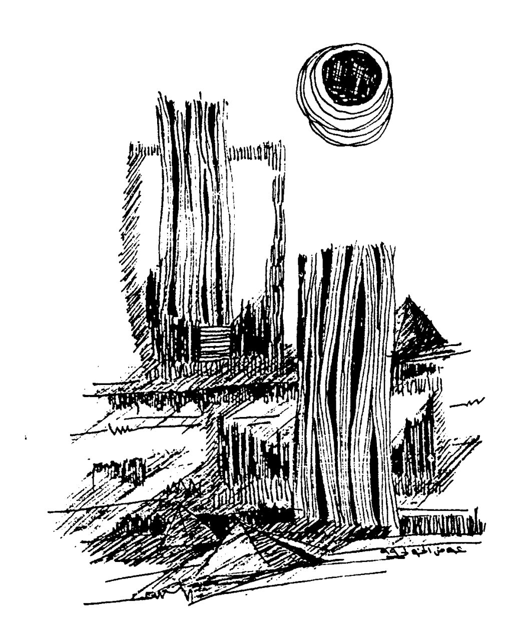
وتصرخ أبواق العربات المخنوقة خلف الترام المشلول .. فتقفز النساء من الفتحات الممكنة ، يهربن إلى الشارع .. يجرين في كل اتجاه ، وأولهن (عواضه بنت آمنه) ... وكذلك فعل الرجال والشباب ، و (بشير) في إثرهم .. يحمل على أكتافه وديعة البلد هناك ..

. . . .

ليتك كنت معنا .. لترى ..

. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

• الإسكندرية ١٩٨٩/١٢/٢٤



جغرافيا الخروج

• <u>الموقــع</u> . .

نرتع فى قلب الارض.. وترتع الدنيا إلى منطقة الدفء ، الحب ، الكنز فى قلبنا الكبير .. نردد أغانى الخلود والطبيعة ، تملأ أرجاء الكون .. نطلق التعاويذ ، السحر .. نطارد الشيطان فى كل حين .. نتمكن منه .. نقيده تحت أشجار الغابة .. نطوف حوله فى رقصة النار تحت طبول الغضب .. بعد أن داهمنا ذات يوم ، يسرق الحب ، الناس . العاج .. يزرع فينا انفصال الأشياء والتمييز .. لم ناكله تحت الفزع الأكبر .. حررنا أسره ..

- .. (يا أبناء العم نناديكم .. نريد سواعدكم .. أياديكم .. ارفعوا معنا .. الكنز لنا) ..

. . . .

. . . .

- (الهوسا) تنادينا .. هل نخرج لهم يا أبى ؟
- .. نخرج فى اختيارنا .. قبــل أن يهاجمنا أبنـــــاء (الزولـو) يكبلونا بحبال الاستواء .. يجردونا من الرجل فينا .. يبيعوننا من جديد ..

• <u>المنــاخ</u> . .

تسحبنا الرغبة إلى الدفء فى النداء الكبير ، نحمل أقدارنا ، نهرع إلى جدران (الهوسا) .. نتمسح بهم .. يصبون إلينا أعاصير اللهب .. نتلوى .. نزحف عبر الوهاد .. والكثبان ..

- الملح حلمنا ..
- ... الخبز الأبيض .. السمك الجـــــاف .. وبعض الخرز ..
- ... وقليل من الأوراق . تدثر تضاريس الأجساد المشوهة .. أليس كذلك ؟

• **التضـارس . .**

ما زلنا نزحف على رؤوسنا .. بطوننا .. نهرب من الشمس .. ندفن أنفسنا إلى ظلام الغابات الكثيفة .. يشدنا غموضها الرهيب .. يسحبنا إلى الأرض الرخوة تحت الأقدام ..

نفوس .. نغرق .. نتعلق من جديد بالنباتات المتسلقة ، المتشابكة .. تلتف حول أعناقنا .. تأكلنا .. نأكلها ، قبل أن يغنم بالفريسة كائن آخر .. فرائحة الموت تملأ المكان انتشارا .. ينقله إلينا طنين الـ (تسى تسى) .. وعيون الـ (نيام .. نيام) تنتظر نومنا الكبير .. فالكل فى أحشاء (السافانا) جائع ..

- أين يصبنا رافدنا ؟
- إلى المجهول المبهم ..
- نريد جبال القمر ..
- .. تحلمون كثيرا !!

• **المـوارد . .**

تفتح أبواب المغارة جميعها تحت زئير (على بابا) .. يدخل .. يتبعه جنوده .. ينتشرون فى كل الأرجاء .. يقلبون .. يبحثون .. يفتشون عن الكنز الكبير .. لا أثـر له ..

- ما وراء .. (على بابا) ؟
- لقد فعلها لصوص العاج والماس ..
- عندهم سر أيامك العجاف ..
- نعم يا سيدى .. والأمر إليك ..
- أمهلوهم قليلا .. ثم .. أخرجوهم ..
- .. بل نذبحهم .. نأكلهم ..

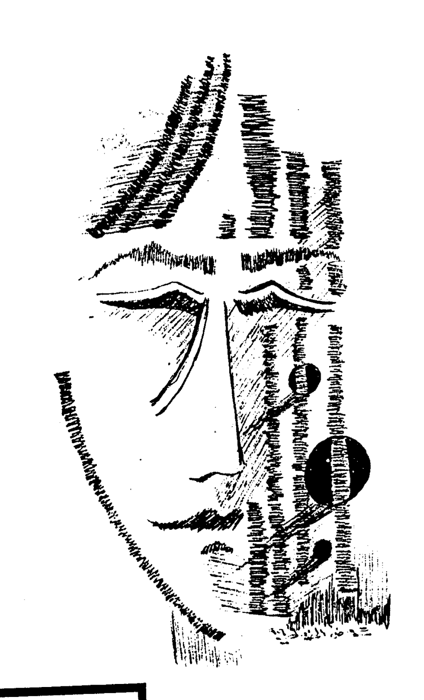
• الإنســـان . .

عندما تنقبون الأرض من جديد ، بحثاً عن الكنز فى جوفها ·· ستنفجر فى وجوهكم ينابيع الدم ·· تحمل أحزانى وخروجى ، كفنا يفرش كل الدنيا ··

- إلى متى ·· أين ·· نركب جنازتنا ؟
- حتى تبلعنا رقصة الموت ··
- لكننا ·· بلغنا مشارف مدينتنا ··
- تقول طبول الغابة ·· احفروا قبوركم ·· لا مكان لكم بيننا ··
- ··· تعنى ؟
- تورمت قبورهم ·· فالموتى يفرشون الحلم ··
- لن يساعدونا للمرة الأخيرة ؟
- دعهم ·· الهموم تملأهم ··
- ما ذنبنا ؟ ·· لقد حاولنا ··
- لكنهم كانوا ينتظرون ·· يحلمون ··
- تعنى ؟؟ ·· لن نودع الأرض !!
- فقط ·· اقرأها السلام ··
- ··· مات الحب عندهم ؟
- ······ ومات كل العالم ··

• • • •
• • • •

• جريدة الجزيرة (السعودية) ١٩٨٣/٥/١٧



ثقوب في
نظرية
القيمة

١ - الأرض ..

(الأرض أرضنا .. عن أبونا وجدنا ... وبكرة ولا بعده .. لعيالنا بعدنا)

.. يلفظ أبوك وصاياه الأخيرة فى صدرك .. تشرحه .. تشرخه .. أمانة فى عنقك ..

ـ لكنك جئتنا فى نبوءة (عواد) المسمومة ..

ـ .. (المستثمر أكثر عطاء يا أمى) .. تقول نظريـــات القيمة .. الأبحاث .. الدراسات .. أنهم يزحفون .. يلهثون .. يتوددون .. يتقربون زلفى تحت قرابينهم الكثيرة .. يطلبون ودها ..

ـ .. (قلت .. الأرض كالعرض .. لا تفريط) ..

٢ - المــــال ..

عندما تتوغل فى أحشاء الزمن بحثا عن عبق السحر القديم ، يملأ رئتيك بالدفء .. الأمان .. عندها (انظر حولك) .. فهناك تجلس الأم عند مدخل السوق للمقايضة .. البيض بالذرة .. الزبــد بالملح .. العين بالعين (إذا لزم الأمر) .. والقناعة كنز يا ولدى ..

خذ أوراق المقايضة .. معذرة أقصد المبادلة .. أصنع زورق .. أركب الترعة .. البحر الكبير .. أعبر لأيامك .. تطهر هناك على أعتاب المدينة الكبيرة .. تدثر بأحلام النائم البعيدة .. تشبث برائحة الطين .

ـ بوتيك عند مدخل القرية .. ناحية (التوته) للقلوعة فى رداء (البيتومين) ..

ـ انتظرناك فى جنازة (التوته) .. تعالجها .. وتعالجنا ..

ـ .. كله عند (السادة) صابون .. سندباد عصرنا يركب الأسفار .. جزارا .. نجارا .. سباكا .. حدادا ... سفاحا ..

ـ حدثنى قلبى بانقلابك ..

- جئتك ·· بنبوءة الزمن القادم ·· (والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ؟) ·
- ·· إلينا بسحرك ··

٣ - العمـل ··

تعمل ·· تمسح ·· تثرثر ·· تدلل ·· تخترع الحيلة فى مبادلـة المقايضـة ·· تنصهر تحت أيامها ·· تجمع فتات القحط ·· أعقاب العبيد ·· تلقمنا الصبر ·· و ··· (لا تفريط فى الأرض) ··

- ·· لكنك عندمـــا تقومين باستثمار مدخراتـك ·· لا بد أن تستعمليها لبناء أصول رأسمالية جديدة ·· يتم ذلك عن طريق توظيف العناصر الإنتاجية ··
- أخاف أن تلتهمنى نظرياتك ·· كما افترست الأرض من تحتى ··
- ··· معاذ الله يا أمى ·· فقط ·· إن العرض والطلب ·· القوة الشرائية ·· تنخفض ·· ترتفع ·· تعرفين البنوك ·· سحب ·· إيداع ·· ناهيك عن القروض ·· الودائع ·· خطابات الضمان ·· على أنى لن أدخر جهدا فى إعادة دراسة الجدوى لمشروعنا الصغير ·· نساهم من جديد ·· توزيع الثروات ·· مكافحة التضخم ··· فمرضى القرية فى انتظارنا ··

٤ - المنظم ··

أين كنت تدخر نبوءتك ؟ · · تلك التى انتعشت فجاة ، وتضخمت حتى الانفجار · · تجرف أموالنا · · تأكل تراثنـــــا فى أكذوبة (مسيلمة) · · اجعلونى على خزائنكم · · (يا أيها الملأ افتونى ···) · · تصرخ أمك · · قيدتنا من خلاف فى أرقام خسائرك · · تلف قروضك حول أعناقنـــا · · تريد رؤوسنا فى أطبـــــاق (سالومى) · · قرابينا لضيـوف ملـهاتك · · يطربـون لمصـرع العبيـد ، تحـت روث الاستهلاك · · ينتظرون (نيرون) · ·

- المستثمر أكثر عطاء يا أمى ..
- .. (الأرض كالعرض .. لا تفريط) ..

لكن (البوتيك) عند مدخل القرية .. استيراد .. تصدير .. لعبة الكبار فى كل حين ... لا عليك .. الضرائب .. الجمـارك ، فى جيبى ..

- معذرة يا أمى .. جنتك بالمعادلة المقلوبـة .. بـالرغم من دراساتى المتلاحقة .. تحضير .. تشريع .. تنفيذ .. مراقبة .. قد كان جيبى مخرومـا (قاتله الله) .. فقط .. أردت أن أودعك سرى ، حتى تنامى .. راضية .. مرضية ..

٥ - الثقوب ..

ما زلت مصلوبا فوق أطراف راتبى .. عاريـا .. مكشوفا .. بعد أن نزعت الريح أوراقى .. تنخر المأساة أوتادى .. تحوم الطير حولى .. تأكل خبز الرأس .. قبل أن تخرج أفيال الغابة تبحث عن الأرانب فى أشعة الجفاف ..

• • • •
• • • •



مقاطع
من
أسطورة
الدفء

- ١ -

عندما تفتح قاموس الآمال المذبوحة ، بحثا عن معنى الأسر .. تجدنى مشدودا من خلاف إلى سطور الكتاب القديمة .. أزحف .. أجمع قطرات دمى .. تحت نزيف الكلمات ..

- يا ولد .. هذا عمك ..

أبناء الشيطان باعونى بثمن بخس .. دراهم معدودات فى ترانيـــم (السح الدح) ، بعد أن خلعت أمى المعاش الذهبى .. يطوق عنقها .. يدفننـا فـى زمـن الجليـد القـــادم فى رحلة الأب الأبدية ..

- ولدى يحلم ..
- تقول نبوتنا الغالية .. سيركل الدمقس والحريـــر .. يذوب فـى كؤوس اللؤلـؤ والمرجان ..

- ٢ -

مازلت راقدا على قارعة الطريق ، فوق حصيرة الصبر .. يدثرنى الندم الأكبر .. يمطر الليل فى صدرى كوابيسه المفزعة .. وأبى هنـاك .. تمزقـه طواحين الهواء .. يصرخ .. أصرخ .. نصرخ .. لا تهرب .. أهرب فى كل الاتجاهات .. أهرس أشواك الأرض المزروعة .. أبلـع متـاريس الطرق الكبرى .. الجبال تركـى الجبـال .. بقايـا شـــعاع هارب من الشمس .. يتغلغل فى نتـوء الصخر .. أهـــرع إليه ..

- المؤسسة تنتظرك .. يا أستاذ .
- حفظت اقتصاديات الأعمال الكبرى .
- .. أعرف الكثير عنك .. تعول أخوتك .
- ...... وجئتك يملأنى الحب والرغبة .
- كنت أنتظرك .. (حياك الله) !!

- ٣ -

عندما تطأ قدماك مرفأ الأمان .. شدنى إليك .. تعرف ما يعصرنى .. عشت الجفاف قبلى .. عرافة الأغنية .. حطمت الفنجان .. صرخت فى وجهى .. يا بؤس كل العالم .. أخرج .. اغترف من نسمات القدسية .. تطهر تحتها .. اغتسل من بئر القناعة والكنز .. المكان المناسب فى انتظارك .. يفرشه لك أخو الوهن على الوهن .. بعد أن وارى التراب (غراب الشؤم) ... ينتظرك فى قربانكم الواحد .

(أخى .. أخى .. إن صدقت العرافة .. أريد عقداً)

- ٤ -

احفظ لى يا ولد .. لا تروقنى كثيرا تلك المفروشات الوثيرة .. تزين المكان .. تبعث الدفء والإنعاش حسبما يتفق ... أحببت النسمات الذائبة فى أشعة الشمس .. تلفحنى .. تنعشنى الأعشاب البرية ، تفرش سفح الجبل .. أركن إليها .. أردد أغنيات العاشق القديم فى غياب (ليلى وغنم الأهل) ..

- لكنك يا عمى ؟
- جئت بك .. لأمور جليلة .
- فقط .. الشاى والنرجيلة لضيوفك !!
- لا عليك .. (الله بالخير) ..
- .. (الله بالنور) .. ياعمى

- ٥ -

(يا بنىّ لا تقصص رؤياك ..) .. إنهم يطوفون حول أخبـــارك .. يبعثرون حسدهم فى أركان حلمك ....عاد (أخوالك) ينفضون غبار القطيعة منذ ميلادك البعيد .. يسألون عنك .. يحبونك فجاة .. وبنات الحى .. ينشدن أغنيات العشق .. يحلمن بعودة الفارس ... ولدى .. هل يتسع صدرك ؟

- ٦ -

- أريد أجازه يا سيدى .. القحط ينخرنى .. والعقد فى يدى ..
- ناسف .. نحتاجك الأن ..
- لماذا الأن ؟
- ولماذا أنت ؟ لا تجادلنى ..

وتخرج أمى .. تجمع أشلاء حلمى المدبوح فى محراب الحقد الطاووسى .. تسكب الدمع .. تغسله .. تغسلنى .. أهب من سباتى .. أهرع إلى قروشى الصغيرة .. أبددها . قربانا لعيون الخبرة .. (العقد سليم وربنا يوعدنا) ..

أركب تصريحهم .. يقذفنى إلى صفوف الخروج المبهم .. تهرسنى أرجل التصديق والتوثيق .. (فى دورك يا بن الكلب) ..

ما زلت عاريا .. مصلوبا إلى الوهم الممتد .. أتلقى قسوة جلادى المطرة .. أنفجر من داخلى .. يعوى كالمجنون .. ينفث نيرانه .. يطارد الريح .. يطاردنى .. يلهبنى سوطه .. (لماذا تحلم يا بن " ... " ؟)

أصرخ .. أجرى .. الطريق تحتى لا ينتهى .. الكون واسع فى كل الاتجاهات .. السحب السوداء تزحف حول الشمس .. تخنقها .. تخنقنى .. أهوى إلى الأرض .. أجمع حصواتى .. أقذف شيطانى ... وبنات الحى يراقصن (أخوالى) .. يـــدور (عمى) بينهم .. يحمل (النرجيلة) .. أقداح الشاى ..

(أبشروا .. أبشروا .. أعرف الكثير عنكم) .. يضحكون كثيراً لنداء أمى ، تحت أشلاء أيامنا الممزقة .

(ولدى .. إنى أنتظرك) ..

. . . .

. . . .

مازلت عاريا .. تبلعنى أيامى الزاحفة .. أغوص فيها تجذبنى إلى مدارى .. أضم حلمى إلى صدرى .. أغمض عيناى ..

• جريدة الأهرام ١٩٨٤/٣/١٤



زهور صفراء

شردت المرأة العجوز ، ذات الشعر الأشعث ، والأنف المعقوف عندما أعلن مشرف الرحلة داخل الأتوبيس السياحى الذى ينقلهم :

- .. هذه منطقة المعدية التى تربط سينـــاء بالوادى .. دأب أبناء المدينة على تسميتها بالمنطقة رقم (٦) ..

اهتزت المرأة فى مقعدها ، تلفتت حولها فى فزع ، حدقت من خلف زجاج الأتوبيس فى فضول ، تمسح بعينيها كل المكان ..

- المنطقة رقم .. (٦) ..

تطلعت إلى المرشد تسأله برأسها عن هذا الشاهد القائم هناك على الجانب الشرقى للقناة .

- .. النصب التذكارى للجندى المجهول ..

- .. ولماذا تلك الربوة ؟

- .. فى نفس المكان تم رفع أول علم مصرى بعد عبـــــور القوات المسلحة لمانع قناة السويس المائى ، وإزالة أقوى نقطة حصينة على خط (بارليف) لا شك أنكم سمعتم .. وقرأتم ... و ... و ...

ولم تصل باقى الكلمات إلى الأذن العجوز .. دفنت وجهها بين يديها .. وأجهشت بالبكاء ..

الجنسية أمريكية .. هذا ما ينطق به جواز الســـفر الذى تحمله .. لكن .. عيون السمكة .. الأنف المعقوف .. تفضح الهوية ..

- ... اسمه (قاسم) .. كان حارسا على النفايات هناك .. أمام المستشفى بالمنطقة رقم (٦) ..

- متى كان هذا ؟

- أوائل السبعينات ·· قدر ما تسعفنى الذاكرة ··
- قبل العبور ؟
- نعم ·· (تقول فى عربية ركيكة)
- وماذا تريدين ؟
- ·· كان ابنى يعرفه ·· ويداعبه فى بعض الأحيـــــان ·· ولهذا جئت لأقــــول لـه (شالوم) ·· أقصد ·· أقرءوه السلام ··

(لا داعى لأن توارى هويتك ، فرائحتك تفضحك يا امرأة) ·· هكذا ردد - فى نفسه - رجل الاستقبال بالفندق الكبير بالمدينة وهى تطلب منه معلومات عن الذى كان ابنها يداعبه كما تدعى ··

· · · · · ·

· · · · · ·

· · · · · ·

نعم كان (قاسم) مصريا ، طيبا ، يقوم بحراسة المهمات والمعدات التى لم يتم نقلها من المستشفى إلى مكان آخر داخل الوطن الجريح ·· يشاركه فى عمله مجموعة من رجال المقاومة ·· كان أكبرهم سنا ·· بكى كثيرا عندما رآهم على الجانب الشرقى للقنــاة ·· يشـيّدون حصونـهم ·· يقيمـون السـواتر ·· يفرسـون المتاريس ·· يزرعون الألغام ·· الأسلاك الشائكة ·

كان يشيط غضبا عندما يظهر (جوزيف) على الشط الشـــــــرقى بصحبة (رفيقته) فى النقطة الحصينة يتجردان من ملابسهما فى محاولة استفزازية لكل الرجال القابعين خلف الساتر الغربى ··

- ·· نجستو الميّه ·· يا ولاد (الكلب) ·

يصرخ فيهم فى كل مرة .. لكنهم يضحكون .. ويضحكون .. حتى ترصد لهم ذات يوم .. أطلق فى اتجاههما عياراً نارياً طائشاً - دون ما أى أوامر من رؤسائه - فانطلقا فارين تحت الفزع يحتميانِ خلف أضلاع (بارليف) .. تاركين ملابسهما على الشط .

صدرت الأوامـر بعد ذلك باستبعاد (قاسم) من المنطقة .. ونقل إلـى حيـث هجرت عائلته بالزقازيق .. ومات هناك .. حسرة وكمدا ..

وعلى الجانب الشرقى .. كان (جوزيف) فى مجونه واستفزازه للرجال هناك ، حتى تم تدمير النقطة الحصينة فوق رأسه ورءوس رفاقه .. فى نفس المكان الذى تطلعت إليه السيدة العجوز هذا الصباح ، وراحت تبكى ..

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

عاشت المرأة تلك السنين فى إحدى المصحات النفسية البعيدة ، بعد أن هزتها الصدمة الكبرى ، وعندما تحسنت حالتها طلبت من ذويها السفر ، أكد أطباؤها على ذلك .. (رحلة سياحية إلى الأهرام ، ومنطقة قناة السويس إن استطعتم) ..

وجاءت تحمل تلك الزهور الصفراء من أجل (قاسم) .. لا نعرف ما فى رأسها الأجوف ..

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لا مانع من أن تتسلم الزهور منـــها .. تصرف فيها كيفما شئت .. فالفوج الذى يضمها سوف يغادر البلاد بعد ساعـــات قليلة ... و ...

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سألها موظف الاستقبال بالفندق الكبير عندما عادت إليه :

- لماذا (قاسم) ؟
- كان قطعة من ذكريات ولدى ..
- لا أفهم ؟
- .. عندما كنت أتطلع إلى وجه (جوزيف) أثناء زيارته الميدانية بيننا .. كنت أقرأ كتاب الموت المسطور فوق جبهته .. أردت أن أحذره كثيراً .. الزحف قادم لا محالة .. لكنه كان يقتل الخوف الذى يملأه بتلك الضحكات الهيستيرية .. يطلقها .. ويتجرد من ملابسه أمامى .. يقول .. هكذا أفعل لـ (قاسم) كل صباح ..
فلا أملك سوى أن أضحك معه على هذيان الرجل على الشاطئ الغربى ..
- لهذا جئت ؟
- .. فقط أريد رؤيته .. ألملم أشــــــلاء ضحكات (جوزيف) .. أضمها إلـى صدرى ..
- .. مات الرجل منذ زمن بعيد ..
- تلك صفعة أخرى لم أحسب لها .. كانت الأولى هناك تحت نصبكم التذكارى ..
- .. لا عليك ..
- إذن خذنى إلى مقبرته .. أضع فوقها تلك الباقة ..
- لا مقبرة له هنا .. (قاسم) والرجال ينامون فى قلوبنـا ..

- ما العمل ؟ والفوج على وشك الرحيل ..

- يمكنك أن ترحلي في سلام ..

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ما إن تحرك الأتوبيس من أمام الفندق يحمل أفراد الفوج في طريقهم إلى المطار حتى أخذ موظف الاستقبال الباقة الصفراء يلقفها إلى عامل النظافة بالمكان ...

- نشرت بجريدة الأيام السكندرية ١٩٩٠/٩/٢



كابوس

عندما يسألونك عن الخوف .. قل : الصبر مقبرتى .. لا تدعهم يجرفون رفاتك ، يحرقونه كما حرقوا المئات قبلك . فلن تغنيهم ذراتك الخضراء ، يبدرونها فوق المستنقع الآثم فى صدورهم ..

- .. قال لى : أحببتك يا رجل .
- .. كثيرا ما يقول ..
- .. ثم .. روضنى على دروبه الوعرة المستحيلة .
- .. كثيرا ما يفعل ..
- .. ولكنه خاننى !!
- .. كثيرا ما يخون ...

فى البدء كان مسيحا .. طيبا .. يصلبنى فوق ابتسامته .. فعدت أرتع فى الأمل النائم فى السكينة .. أجرى فى الحلم .. أجرى .. أجرى .. أحضن كل الكون .. أضم كل النسمات فى صدرى .. أجرى .. أضحك .. أغنى فى الأخضر الممتد .. تتعثر خطاى .. أهوى فى البئر السحيقة .. أصرخ .. يرتطم فزعى بالجدران .. يزلزلها ..

ألمحه على حافة [illegible]ن يدلى دلوه .. يبتسم من جديد والسماء الحمراء فى عينيه تهطل دما ونارا .. وتنحشر الصرخة فى أعماقى .. تشدنى إلى أسفل .. تربطنى إلى القاع .. أرفرف محاولا الخلاص من دوامتى .. أصرخ إليه .. أبكى ..

- .. أنقذنى يا سيدى ..
- .. قدرك يا ولدى ..
- .. كنت تلميذك ولم أقصر ..
- .. لكنك أخفقت ..
- اسحبنى إليك .. علمنى من جديد ..
- ماتت الفرصة ..

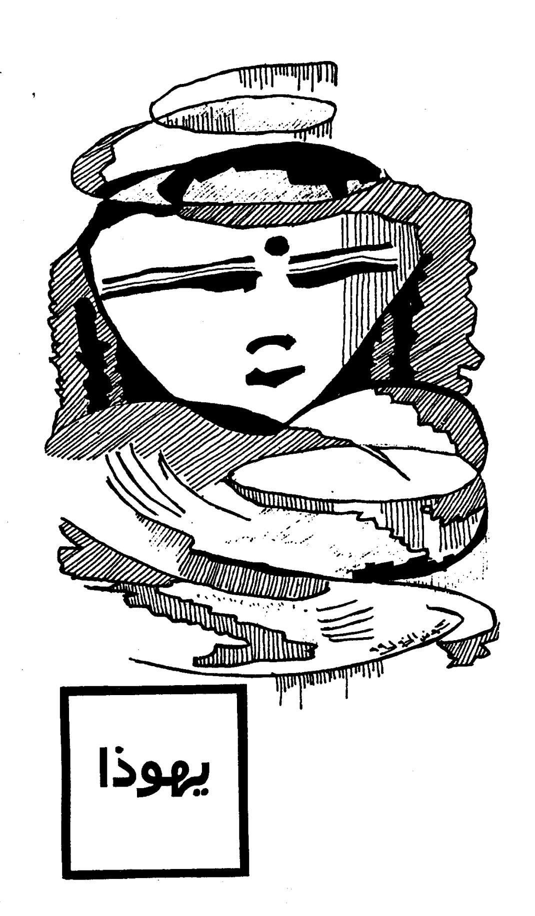
- حسبتك أسرعت لخلاصى ..
- ماتت الفرصة .. ومات كل العالم ..
- إذن لماذا أنت هنا .. تحمل دلوك ؟
- .. فقط .. أريد دمك ..

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

• الإسماعيليـــة ١٩٨٩/١٢/٣


یهوذا

أعرفك يا ولدى منذ العود الاخضر ، قبل أن تنبت أظافرك ، تترعرع أنيابك ·· طيبا كنت ·· هادئا ، مطيعا ·· تفزعك أغنيات الغضب ·· تحمل همومك ·· تسرع إلى موضعى ·· تفرغ أحزانك تحت أعتابى ·· أتلقفك ، أضمك إلى صدرى ·· تبكى ·· أربت فوق رأسك ·· لا تخف ··

- الحجم بسيط ·· والحلم واسع ··
- قلت لا تخف ·· ستركب الحلم يوما ··

وعدت أصب فى وعاءك الخاوى كل عصير الرحلة ، أغسلك من وجدانى ، أطهرك من الرجس النائم فى حلمك ·· احزمك بإكليل الصبر ، أتوكا على عصاى ، أصحبك خلفى ···

من هنا نبدأ ·· خطوة ·· خطوة ··

- لكنهم يدبرون ·· ويدبرون ··
- الصدق أقصر الطرق ··
- يحتسون الكذب ·· ويمضغون تصريحاتهم الشـــامخة تحت لعابهم !!

وعدت أحتويك من جديد ·· أهش عن رأسك كل (زنابير) الهوس قبل أن تداهمك فى غفلة منى ·· لكنهم سرقوك من حضنى ·· صبوا لك كؤوس الأمنيات والأغانى البعيدة ، تتجرعها فى نهم ·· تسكرك ·· حدثنى قلبى بذلك ، لم أفاتحك فى نشوتك ·· وأنا أحسب لعودتك ·· أطهرك من جديد ··

- ·· خذلك عندهم ·· طوحت كؤوس النشوة برأسه ··
- ·· مازال صغيرا ·· أخضرا ··
- ·· يردد أكاذيبهم عنك ··
- ·· سوف يعود يوما ··

.. وعدوه بمكانك عندهم ..

.. إنهم لا يفقهون ..

.. لكنه نام فى حلمهم ..

.. لا عليكم .. لا عليكم ..

وعدت إلى قارعة الطريق مذموما مدحورا بعد أن صلبتنى فوق شفتيك .. أحسب ما كان منك .. أبحث عنك .. أبكى أمرك ...... وأنتظرك ..

● ● ● ● ●

• الإسماعيليـــة ١٩٩٠/٢/٢٥

صدر للمؤلف

١	الطاحونة	مجموعة ١٩٨٢	ثقافة الإسماعيلية
٢	الخروج	رواية ٨٢/١٩٨٦	المؤلف
٣	القبو	رواية ١٩٨٦	أشرقات أدبية
٤	العطارين	رواية ١٩٩٠	المؤلف
٥	حدث فى يوم الزينة	مجموعة ١٩٩٢	المؤلف
٦	من أروقة الغابات	مجموعة ١٩٩٤	أصوات أدبية
٧	عباس السابع	رواية ١٩٩٤	المؤلف
٨	حلم امرأة	مجموعة ١٩٩٩	المؤلف

تحت الطبع

١	الكارانتينة	رواية
٢	دكتور عزيز	مجموعة
٣	الشوارع	رواية
٤	بانوراما الكلب	عرض وتلخيص
٥	أجندة الرواية والقصة	دراسات

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٠ / ٣٧٨٣

مطبعة مركز التأهيل الشامل للمعوقين
الإسماعيلية ☎ ٣٦٠٧٩٩